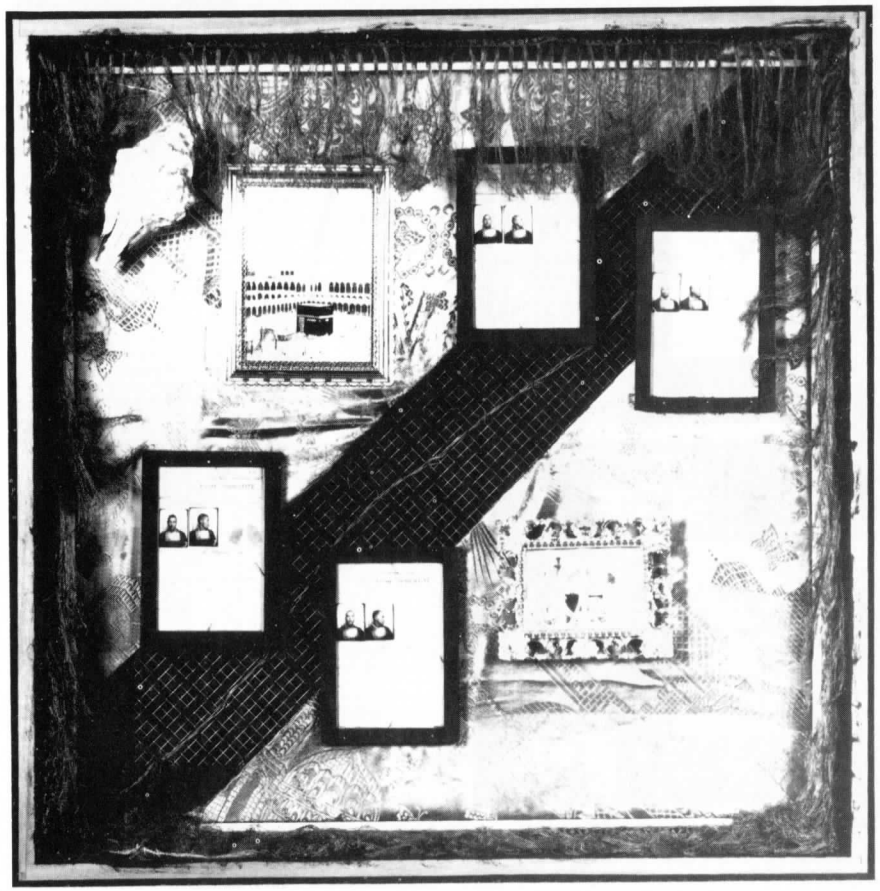

آثارهم وآثارنا

1,07 × 1,07 - 1982

كلنـا مهاجـرون

من الشائع اليوم أن يبحث المرء عن جذور له، وسط عالم أصبح كل شيء فيه يتحرك بسرعة وبشكل مستمر، كالتعلق بقرية أو منطقة، أو التمسك بتقليد ما... واعادة اكتشاف جذورنا هذه، هي التي تجعلنا ننظر بعين الرحمة والشفقة الى أولئك الذين قطعت جذورهم بشكل واضح: المهاجرين واللاجئين...

وان "الادبيات" المتعلقة بهؤلاء الذين أتوا من مكان آخر، مليئة بمشاعر العطف والشفقة حول العواقب المأساوية للثقافة المزدوجة، أو على الاصح: عواقب عدم الانتماء الى أرض معينة وحضارة محددة، "أجانب ومسافرين على وجه الارض"... هذه العبارات التي وصفت بها وضعية المسيحيين الاوائل. وهذا التحريض على حب الحرية والهواء الطلق.. أصبح يدل اليوم على نوع من اللعنة...

وان ضياع جذور الناس ذوى الاصول الاجنبية هو الذى يعمق احساسنا بـ"الفوارق" بيننا وبينهم: فنحن في ديارنا وهم غير مستقرين. نحن مقيمون وهم رحّل. نحن نتمتع بكل الضمانات وهم مضطربون، وبالتالي فهم مخيفون. نحن ثابتون وهم يعيشون في ما هو مؤقت وعابر.

وهذه الطريقة التي نصنف بها "الاخرين" بضمير مرتاح تعفينا من ايجاد أى جسر بيننا وبينهم، أو البحث عن علائق التشابه فيما بيننا. واذا كنا نتشبث بالتعبير عن تجذرنا، فما ذلك الا لاننا نخشى أن نصبح نحن كذلك، مقطوعي الجذور في هذا العالم. ولماذا نخشى ذلك؟ قالت السيدة سيمون فاى بهذا الصدد: "عندما يعمل المرء على اقتلاع جذوره هو بنفسه، فان ذلك شيء عظيم. انها الحياة الفكرية... أما اقتلاع جذور الاخرين، فهو بمثابة الجريمة، خاصة عندما يتم ذلك عن طريق العنف".

ان الاجانب الذين تركوا ضمانات عيشهم، وقبلوا بمخاطرة مواجهة أوضاع جديدة وثقافات أخرى، يكشفون لنا دائما عن وجه من وجوه الانسانية. الشيء الذى من المفروض أن يشكل بالنسبة لنا مناسبة للوعي بعيوبنا وجمودنا، وذلك كيفما كانت دوافع هؤلاء الاجانب. لقد كتب كيركيجارد حول رحلة ابراهيم، أنه "غادر بلد أجداده وأصبح أجنبيا في أرض الميعاد. لقد تخلى عن أهداف العيش في الحياة الدنيا لصالح التمسك بشيء آخر: الايمان، والا فان مجرد التفكير في صعوبة وسخافة السفر،

ومهما كان الامر ، ألسنا نحن أيضا أجانب معدومي الانتماء ومقطوعي الجذور في جانب من جوانب حياتنا ووجودنا؟ لقد غادرنا عهد الحضارات المستقرة نسبيا لندخل عهدا تاريخيا جديدا ، حيث لم تعد مكتسباتنا تنفعنا في شيء لفهم عالم اليوم والتحرك وسطه ، وبالاحرى التنبؤ بما سيحدث في عالم الغد . فكم من واحد منا غادر بالامس القريب ، ثقافة البوادى للارتماء في زوبعة ثقافة المدن ؟ وكم من واحد انتقل من وسطه الاجتماعي الى وسط آخر بفضل متابعة دراسته بشكل مطوّل ؟ أليس الزواج هو الاخر هجرة بشكل من الاشكال ؟ أليست الاغلبية منا تترقب ــ لاسباب مهنية ــ تغيير مهنتها أو سكنها أو حتى بلدها ؟

لقد عمّ الطلاق ، وأصبح الاطفال بمثابة أجانب بالنسبة لوالديهم ، وأصبحوا يفترقون عنهم أكثر فأكثر ، وأصبحنا عاجزين عن الاستقرار النهائي في مكان ما ، وكأننا كلنا في حالة طفو... ولربما كان هذا حسنا : انها على الاقل تجربة من تجارب فقدان الجذور ، تسحبنا من خطورة طمأنينتنا وتضعنا داخل حركة التشوّق والبحث عن النفس.

لا! ان الاجانب ليسوا في تضاد معنا ، كما أننا لسنا في تضاد معهم! ان "نواقصهم" تضعنا وجها لوجه مع نواقصنا... اننا جميعا في حركة انتقال دائمة ، وكلنا عابرون ومسافرون ، هم فقط بشكل بارز أكثر منا ...

مارتين شارلو